

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

روى الإمام أحمد عن ربه، أن رجلاً قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماه غير ياسن او آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع في ركعة واحدة. فقال: اهذاً كهذا الشعر، يا أبا لك؟ قد علمت فرائض النبي ﷺ التي كان يقرن قريتين قريتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: «الرَّحْمَنُ»^(١). وروى أبو عيسى الترمذى عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا. فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما آتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ عِلْمُ الْقُرْآنِ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ عِلْمُهُ الْبَيَانُ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿فِيهَا فَكْهَمٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ وَاللَّهُ ذُو الْعَرْشِ الْمَعْتَدِ ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾

ربع

يخير تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، وسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: «الرَّحْمَنُ . عِلْمُ الْقُرْآنِ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عِلْمُهُ الْبَيَانُ» قال الحسن: يعني: النطق. وقال الضحاك، وقاتدة، وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» أى: يجريان متعاقبين بحساب مَقْتَن لا يختلف ولا يضطرب، «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» [يس: ٤٠]، وقال تعالى: «فالتق الإصباح وجاعل (٣) الليل سكناً والشمس والقمر حُسباناً ذلك تقدير العزيز العليم» [الانعام: ٩٦]. وقوله: «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: «وَالنَّجْمُ» بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والسدى، وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن، وقاتدة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكثيرٌ مِّنَ النَّاسِ» الآية [الحج: ١٨].

(١) المسند (٣٩١٠) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٢) الترمذى (٣٢٩١)، وحسنه الألبانى. (٣) هي قراءة كما سبق بيانه.

وقوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ بمعنى: العدل، كما قال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ أَلَا تَطْفَرُ فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل وزنوا بالحق والقسط، كما قال: ﴿ وَوَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنعام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم والوانهم والستهم، في سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنعام: الخلق ﴿ فِيهَا فَالْمَكْحَلُ ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾: أفرد بالذکر لشرفه ونفعه، رطباً ويابساً. والأكمام قال ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه الفتو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسراً، ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهي يتعنه واستواؤه. وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذي على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ﴾ يعني: التين. وقال العوفي عن ابن عباس: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبه. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾ يعني: الورد. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَالرَّيْحَانُ ﴾: خضرة الزرع. ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالمقمح والشعير ونحوهما له في حال نيته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورد الملتف على ساقها. وقيل: العصف: الورد أول ما ينبت الزرع بقلا. والريحان: الورد، يعني: إذا أذجن وانعقد فيه الحب.

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي: فبأي الآلاء - يا معشر الثقلين، من الإنس والجن - تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أي: التعمُّ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(١). وكان ابن عباس يقول: «لا، بأيها يا رب». أي: لا نكذب بشيء منها. روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٢).

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنَهُمَا الذَّلُوزُ وَالْمَرْجَاتُ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(١) سبق تخريجه في أول السورة.

(٢) المستد (٣٤٩/٦)، وقال الهيثمي في الزوائد (١٢٠/٧): «فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن، وبقيته رجاله رجال الصحيح».

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهما. قال الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ﴿ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾: من لهب النار، من أحسنها. وقال: من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه مسلم^(١).

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعنى: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَلَا أُنْقِصُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم، ويروها منه إلى الناس. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [الزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغرب، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغرب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟

وقوله: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس: أى أرسلهما. وقوله: ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾: قال ابن زيد: أى: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرخ الحاجز الفاصل بينهما. والمراد بقوله: ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾: الملح والحلو، فالخلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة الفرقان عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبى. قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لثلا يبغى هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿ يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ ﴾ أى: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ [الانعام: ١٣٠]. والرسل إنما كانوا فى الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. وحكاه عن السدى عن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. عن عبد الله [بن مسعود] قال: المرجان: الحرز الأحمر. قال السدى وهو البسُّد بالفارسية.

وأما قوله: ﴿ وَمِنْ كُلِّ ثَلَاثُونَ نَحْمًا طَيْرًا وَتَمْتَجِرْجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [طاهر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هى من الملح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس،

قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهاها، فما وقع فيها - يعني: من قطر- فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح. ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْفُجَارِ الْمُتَشَاتُ﴾ يعني: السفن التي تجرى في البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت، وقال قتادة: ﴿الْمُنَشَّاتُ﴾: يعني المخلوقات. وقال غيره: المنشآت - بكسر الشين - يعني: البادئات. ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَسْفِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَسْتَكْبِرُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب - تعالى وتقدس - لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا. قال قتادة: أنبا بما خلق، ثم أنبا أن ذلك كله فان. وفي الدعاء المأثور: «يا حي، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك» (١). وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَسْفِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التصوير: ٢٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجلب فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾. وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، واقتدار الخلق إليه في جميع الآفات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. وعن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا. وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربي صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصرىخهم، ومنتهى شكواهم. وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين» (٢). قلت: وقد روى موقوفا، كما علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء (٣)، فالله أعلم.

(١) الترمذى (٣٥٢٤) وحسنه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٠٢) وفي زوائد البوصيرى: «هذا إسناده حسن»، وحسنه الألبانى .

(٣) البخارى (٨/٦٢٠ فتح) .

﴿ سَفَرُكُمْ لَكُمْ آيَةُ الثَّقَلَانِ ﴾ ﴿ فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾ ﴿ يَتَمَشَّرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ ﴿ فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾ ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِءٌ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِفَانِ ﴾ ﴿ فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ ﴾ ﴿

قال ابن عباس في قوله: ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ آيَةُ الثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جريج: ﴿سَفَرُكُمْ لَكُمْ﴾ أي: ستفضى لكم. وقال البخاري: سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لا تفرغن لك، وما به شغل، يقول: لا آخذنك على غرتك. وقوله: ﴿آيَةُ الثَّقَلَانِ﴾ الثقلان: الإنس والجن ﴿فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محددة بالخلاتق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُؤُ كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِءٌ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِفَانِ﴾. قال ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار. وقال: الشواظ: الدخان. وقال مجاهد: هو: اللهب الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿شَوَاطِءٌ مِنْ نَارٍ﴾: سيل من نار.

وقوله: ﴿وَنَحَاسٍ﴾ قال ابن عباس: دخان النار. وروى مثله عن أبي صالح، وسعيد بن جبيرة، وأبي سنان. قال ابن جريج: والعرب تسمى الدخان نحاسا - بضم النون وكسرهما - والقراء مجمعة على الضم. وقال مجاهد: النحاس: الصفر، يذاب فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال الضحاك: ﴿وَنَحَاسٍ﴾: سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هارين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْصَرِفَانِ. فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ؟﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾ ﴿فَيَوْمِئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾ ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيَوْحَدُ بِالنَّوْحِ وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكْذَبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ إِنْ﴾ ﴿فَيَأْتِي آءَالَءَ رَبِّكُمْ تُكْذِبَانِ﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من

الآيات الواردة في معناها، كقوله: ﴿ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزُلُ الْمَلَائِكَةِ نِزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿ فَكَانَتْ زُرَّةً كَالدَّهَانِ ﴾ أى: تنوب كما يدوب اللزدي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الاصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسما تَطش عليهم» (١). قال الجوهري: الطش: المطر الضعيف. وقال الضحاک، عن ابن عباس في قوله: ﴿ زُرَّةً كَالدَّهَانِ ﴾ قال: هو الادييم الاحمر. وقال أبو كندينة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ فَكَانَتْ زُرَّةً كَالدَّهَانِ ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفي، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وقال الحسن البصري: تكون الوانا. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كزردى الزيت. وقال مجاهد: ﴿ كَالدَّهَانِ ﴾: كالوان الدهان. وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة. وقال قتادة: هي اليوم خضراء، ويوسن لونها إلى الحمرة، يوم ذى الوان.

وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾، وهذه كقوله: ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرِزُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا في حال، وثم حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال قتادة: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرَفُونَ بسيماهم. وهذا قول ثالث. وكان هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أى: بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقاتدة: يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالقرعة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ ﴾ أى: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه في النار كذلك. وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الحطب في التنور. وقال الضحاک: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وقوله: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى: هذه النار التي كتتم تكذبون بوجودها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريماً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله: ﴿ يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ أى: تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالتحاس المذاب، يقطع الامعاء والاحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿ إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿ آتٍ ﴾ أى: حار، وقد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطيع من شدة ذلك. قال ابن عباس في

(١) المسند (٢٦٧/٣) وقال الهيثمي في الزوائد (٣٣٧/١ - ٣٣٨) : فيه عبد الرحمن بن أبي الصهباء ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقية رجاله ثقات .

قوله: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ : قد انتهى عليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي. وقال قتادة: قد أتى طبعه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد ابن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحركُ بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس. وهي كالتى يقول الله تعالى: ﴿لِيُحْمِمْ نُفْسٌ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾. والحميم الآن: معنى الحار. وعن القرظي رواية أخرى: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر لا ينافى ما روى عن القرظي أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَمْرًا نَاطِرِينَ إِيَّاهُ﴾ [الاحزاب: ٥٣] معنى: استواه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على برته: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟﴾.

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤﴾ فِيهِمَا عِتَابٌ لِمَنْ تَجَرَّابٌ ﴿٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانٍ ﴿٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨﴾﴾

قال ابن شوذب، وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ فى أبى بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة ﴿وَتَهَى النَّفْسُ مِنَ الْهَوَى﴾ [التارعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا أثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخارى عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءً الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود (١). وهذه الآية عامة فى الإنسان والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. فبأي آلاء ربكمَا تُكذِّبانِ. ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجر، يس بعضها بعضا. وحكى البغوي عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: أنه الفصن المستقيم. وعن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : ذواتا ألوان. وقد روى عن سعيد بن جبيرة، والحسن مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : واسعتا الفناء. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ بنينُ بسمتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. ﴿فِيهِمَا عِتَابٌ لِمَنْ تَجَرَّابٌ﴾ أى : تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها: «تسليم»، والأخرى «السلسيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

(١) البخارى (٤٨٧٨) ومسلم (٢٩٦/١٨٠) والترمذى (٢٥٢٨) .

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ لَاقِحَةٍ رَوْحَانٌ﴾ أى: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة. وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء، معنى: أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً بينا فى التفاضل.

* مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتٌ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ *

يقول تعالى: ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ معنى: أهل الجنة. والمراد بالانكاه هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة. وقال أبو عمران الجوني: هو الديباج المزين بالذهب. فبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالادنى على الأعلى. وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتهم الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطانتها من إستبرق، وظواهرها من نور. وقال ابن شوذب، عن أبى عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ﴿وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى: ثمرا قريب إليهم، متى شازوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿فَطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا تَذَلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع عن تناولها، بل تنحط إليه من أعضانها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَصِيرَاتُ الظُرْفِ﴾ أى غضضيات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعولها: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، ولا فى الجنة شيء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك. ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطاهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة. قال أروطة بن المنذر: سئل ضَمْرَةَ بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.

ثم قال ينتمهن للمخاطب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه. وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دُرَى فى السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة

اعزب». وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فِي الصَّحِيحِينَ^(١). وروى الإمام أحمد عن ابنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَدُوَّةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رُوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ - أَوْ مَوْضِعُ رَقْدِهِ - عِنْدِي: مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ اطَّلَعْتَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَّتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَطَابَ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَتَصَيَّفَهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ورواه البخاري بنحوه^(٢).

وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].
ولما كان في الذي ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله:
﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢﴾ مُدَّهَاتَانِ ﴿٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤﴾ فِيهِمَا عِيسَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦﴾ فِيهِمَا فُكَيْهَةٌ وَتُحْلٌ ﴿٧﴾ وَرَمَّانٌ ﴿٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿١٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ رَبِّكُمَا لَكَّزَاتٍ ﴿١٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾ مَشْكِيكِينَ عَلَى رَقْرَقٍ حُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٨﴾﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والتمتزة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وقد تقدم في الحديث: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما»^(٣) فالأوليان للمقربين، والآخران لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر في شرف التقدّم وعلوه على الثاني.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْتَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدَّهَاتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدة الرى من الماء. قال ابن عباس في قوله: ﴿مُدَّهَاتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿مُدَّهَاتَانِ﴾: قال: خضراوان. وروى عن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي أوفى، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن البصرى نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: ﴿مُدَّهَاتَانِ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعماتان. ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها في بعض.

(١) المسند (٨٥٢٣) والبخارى (٣٢٤٥) ومسلم (١٤/٢٨٣٤).

(٢) المسند (١٤١/٣) والبخارى (٢٧٩٦).

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٤٦) من السورة.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَنَانٌ تَجْرِيَانِ﴾، وقال ماهنا: ﴿نُعَاخَاتَانِ﴾ قال ابن عباس: أى فياستان. والجرى أقوى من النضج. وقال الضحاک: ﴿نُعَاخَاتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال ماهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَتَخْلُ وَرُمَانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَتَخْلُ وَرُمَانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفى الحديث: أن الحور العين يفتنن: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ بالتشديد ﴿حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قُصِرَتْ طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرَتْ، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخارى عن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون» (١). وأخرجه مسلم به، ولفظه: «إن للمؤمن فى الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا» (٢).

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئِنُّنَّ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَلَا جَانٌ﴾: تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رُفْرَفٍ خُضْرٍ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقاتدة، والضحاک، وغيرهما: هى المحابس. وقال العلاء بن زيد: الرفرف على السرير، كهينة المحابس المتدلى. وقال عاصم الجحدري: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ رُفْرَفٍ خُضْرٍ﴾: يعنى: الوسائد. وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه. وقال سعيد بن جبيرة: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعِجْرِي حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس، وقاتدة، والضحاک، والسدى: العجبرى: الزرايى. وقال سعيد بن جبيرة: هى عتاق الزرايى، يعنى: جياها. وقال مجاهد: العجبرى: الديباج. وسئل الحسن البصرى عن قوله: ﴿وَعِجْرِي حِسَانٍ﴾، فقال: هى بسط أهل الجنة - لا أبأ لكم - فاطلبوها. وعن الحسن رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العجبرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العجبرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو العالية: العجبرى: الطنافس المحملة إلى الرقة ما هى. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى. وقال الخليل بن أحمد: كل شىء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عجريا. وقول النبى ﷺ فى حبر: نلتم أو عفرنا يفرى فريه» (٣). وعلى كل تقدير فصحة ما سبق عمل اختيارنا لأولى من أرفع وأعلى من هذه الصنعة؛ فإنه قد قار

(٢) (٢٣/٢٣٣٨)

(١) البخارى (٤٨٧٩).

(٣) البخارى (٣٦٨٢). ومسلم (٢٣٩٣/١٩).

هناك : ﴿مُعِينٍ عَلَىٰ نُفُوسٍ بَاطِنَاتٍهَا مِنْ إِسْتَرْشِقٍ﴾ ، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها ، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأخرى . وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات ، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ، ثم الإيمان . فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخريين ، ونسال الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين .

ثم قال : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى : هو أهل أن يجعل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعيد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى . وقال ابن عباس : ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ : ذى العظمة والكبرياء . وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الظوا بذى الجلال والإكرام» . ورواه النسائي^(١) . قال الجوهري : أَلْظُ فلان بفلان : إذا لزمه . وقال ابن مسعود : «الظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أى : الزموا . ويقال : الإلظاظ هو الإلحاح . قلت : وكلاهما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة واللزوم والإلحاح . وفى صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد - يعنى : بعد الصلاة - إلا قنر ما يقول : «اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام»^(٢) .

(١) المسند (١٧٧/٤) والنسائي فى الكبرى (١١٥٦٣) ، وصححه الحاكم فى المستدرک (٤٩٨/١) وأقره الذهبى .

(٢) مسلم (١٣٦٦/٥٩٢) وأبو داود (١٥١٢) والترمذى (٢٩٨) والنسائي (١٣٣٨) وابن ماجه (٩٢٤) .